مقدمة

لقيت شخصية عبد الله بن المقفع وفكره ونثره عناية القدماء والمحدثين؛ ووقف أكثرهم صفين متقابلين في تهمة الزندقة التي وجهت إليه؛ منهم من اتهمه بها وأثبتها عليه مع التعصب لبني بجدته من الفرس؛ ومنهم من ظل على شكه في تلك التهمة، لكنه وصفه برقة الدين، ونذر أن وجدنا دارساً برأه من أي منهما على وجود آخرين لم يتعرضوا لهذه القضية برمتها. وعلى الرغم من ذلك فقد رأيناهم جميعاً يتفقون على أنه كان ثاني اثنين مع عبد الحميد بن يحيى الكاتب؛ أستاذه ومعاصره؛ تركا بصمة عظيمة في النثر العربي في زمن صعب، زمن بدايات النثر الفني، إذ شكلا في مرحلة الريادة هذه مدرسة فنية أدبية في الكتابة أخذ الناشئة من الكتاب يتتلمذون على يديها؛ فضلاً عن أثرهما في كل من جاء بعدهما من الأدباء كالجاحظ وابن قتيبة وابن طباطبا وأبي هلال العسكري وابن عبد ربه وقدامة بن جعفر وابن رشيق والثعالبي... ولكنهم جميعاً أغفلوا ما له من شعر وكأنهم رأوا في نثره شخصيته وعبقريته المتميزة في الدعوة إلى الإصلاح، وفي أساليبه.

وتميز ابن المقفع من عبد الحميد بأن بريقه طفق يلمع في وقت اختفى عبد الحميد من مسرح الأحداث حين أخذه أبو العباس السفاح وقدمه هدية إلى عبد الجبار؛ لأنه كان كاتباً لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، واستطاع ابن المقفع أن يتحمل مسؤولية صناعة الكتابة بعد أستاذه ليصبح ـ بجدارة ـ إحدى

العبقريات الأدبية في عالم العرب والإسلام. فهو لم يخلف لنا فقط جملة من الآثار والمصنفات البديعة التي شهد الناس بتنوعها وحسن تصنيفها، وإنما استطاع أن يرتقي بأساليب العربية؛ وأن يرقق الكثير منها؛ ومن ثم زاد عليها عدد آخر لم تعرفه العربية قبله.

ومثلما كانت شخصيته، ولا سيما إسلامه؛ مدار حوار طويل بين الأدباء والدارسين حتى الآن كانت آثاره مركز نقاش مستفيض في كونها تؤيد هذا الطرف أو ذاك.

ويبدو لي أن كثرتهم الكاثرة لم يعنوا كثيراً بأن ابن المقفع قد عاش في مرحلة انتقال سياسي عظيمة الفتن والأحداث، بانتقال الخلافة إلى بني العباس، ولم يلحظوا - أيضاً - الإرباك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني الذي كان يعصف بالناس، ومن ثم لم يلتفتوا إلى أنه يعيش بين حضارتين فارسية قديمة لم يبق منها في الأذهان إلا صورة النظم الإدارية التي أبدعها ملوك فارس، وعربية إسلامية ناهضة يشارك فيه العنصر الفارسي وغيره من أبناء الدول المفتتحة والعنصر العربي، والذي حمل على عاتقه مهمة الفتح وإبلاغ رسالة الإسلام إلى كل إنسان في نواحيها، وبخاصة أن لغة القرآن صارت اللسان الجامع لذلك كله؛ فضلاً عن الدين.

وفي صميم هذا المناخ كان ابن المقفع طفل يعيش ويتنفس وهو لا يزال على دين آبائه؛ إذ لم يسلم أبوه الذي عمل في دواوين الدولة للحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق وأخذ ينشئ ابنه على صناعة الكتابة.

هكذا أخذت مدارك الفتى تتفتح وفي عقله ثقافة فارس يحملها بين جوانحه؛ واعتقاد بدين المانوية دين آبائه، ومن ثم يرى الإسلام بكل مبادئه الخلقية السامية يرفرف بظله ماداً نوره في الآفاق، ويرى المصنفات العربية هنا وهناك في الشعر واللغة والفقه والتفسير والحديث، لكنه يشاهد في آن معاً حالة من الفساد والفوضى تدب في أوصال الدولة والمجتمع .

فالأمة التي ينبغي أن تتقدم وترتقي كانت تتراجع، وتتمزق إلى شيع ومشارب فكرية واجتماعية ومذهبية وعرقية، فالعصبيات عادت تطل برأسها لتنخر في عضد الأمة التي وحدها الإسلام، لهذا كله أخذ الفتى يتطلع إلى حركة في الإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني والخلقي، ومن ثم رغب رغبة شديدة في أن يثبت مكانة له بين الكتاب في دواوين الولاة؛ إذ أضحى للكاتب منزلة خاصة لا يضاهيه فيها أعظم الناس؛ فاندفع مع هذا الطموح الجارف واندمج بلغة القرآن الكريم وثقافته حتى حذقها، ومن ثم حذق الفارسية القديمة التي كانت تندثر، إذ لا يتقنها من الفرس إلا العدد النادر و رأى أن خير ما يحقق مراميه إنما هو ترجمته لما بين يديه من آثار فارسية قديمة؛ باعتباره - وهو الفتى الناشئ -لا يتقن إلا الفارسية و العربية.

ونرجح في هذا المقام أن ابن المقفع بما امتلكه من قدرات عقلية خارقة - وقد تسلح بمعارف شتى ومنهج سديد - راودته فكرة إعادة كتابة التاريخ؛ ولما لم يتقن من اللغات إلا العربية والفارسية ليبدأ بترجمة أول كتاب يتحدث عن بداية الخلق ونشوئه فكان الكتاب المشهور (خداينمك) فترجمه أولاً - وترجمته نسخة من ثماني نسخ اجتمعت بين حمزة الأصفهاني - كما قال

لتأليف كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض) - وثانياً ترجم (الآيين في سير الملوك) ثم توالت سلسلة الترجمة، حتى قدم للبشرية كتاب (كليلة ودمنة) الهندي الأصل المترجم إلى الفارسية الفهلوية القديمة؛ والتي ترجم عنها ابن المقفع الكتاب.

ولما اتجه هذا الاتجاه كان يدرك أن المكتبة العربية لا تملك من هذه المصنفات التاريخية شيئاً، لذلك اتجه إلى باب لا يعرفه غيره وفتحه بقوة، وحينما كان يفعل ذلك كان يعيش بين حضارتين؛ حضارة فارسية قديمة وحضارة عربية إسلامية ناهضة، فقدم من الأولى إلى الثانية ما يراه مفيداً لها؛ فحقق جسر التواصل الحضاري الثقافي بينهما، في الوقت الذي أصبح جسر اتصال حيوي فعال بين القديم والجديد، فسبق الأمم إلى ما تصبو إليه اليوم من حوار حضاري شريف.

ولهذا كان بحثنا بعنوان (ابن المقفع سيرة إبداع بين حضارتين) ومن هنا تكون رؤيتنا لقراءة شخصية هذا الرجل وآثاره و لا سيما أدبه /نثراً و شعراً/ قراءة فكرية نقدية معاصرة، وقراءة أدبية جديدة تضعنا عند عتبات فنونه وموضوعاته وأساليبه التعبيرية بخصائصها المميزة .

ونحن إذ نقبل على ذلك كله نرجو أن تكون قراءتنا قراءة موضوعية نزيهة ومحايدة، للوقوف عند المفاصل الأساسية لهذه العبقرية الفذة في تاريخ أمتنا، بعد أن مزقتها مرة بالزندقة، ومرة أخرى بالشعوبية والعصبية للفرس، وجعلتها ترتكس عقلياً - وهي التي اعترف لها بالعقل والدراية -إلى المذاهب القديمة للفرس كالمانوية بعد أن تزينت بشفافية الدين الحنيف، وانقادت له طواعية

دون إكراه من أحد؛ قريباً كان أم بعيداً؛ والياً أم خليفة، صديقاً أم عدواً، وسيقت الأباطيل في هذا كله ليشاع بين الناس حتى اليوم أنه زنديق متعصب لفارس وهو أبعد من ذلك كله.

وإذا كنا نعيد قراءة هذه العبقرية الفكرية الإصلاحية؛ وهذه الشخصية الأدبية المبدعة لنستشرف آفاق العقل الحر الواعي؛ وآيات الإبداع اللغوي والفني فإننا نثمن كل كلمة قيلت في هذا المجال -وما أكثرها -نثمن كلمة مناوئيه قبل مناصريه لأنها علمتنا أموراً عديدة ما كنا لنتعرف إليها لولا جهودهم العظيمة؛ ونخص بالثناء منهم الباحثين المحدثين الذين أخذتهم العزة القعساء للعروبة والإسلام.

وحينما كنت أحد العروبيين المسلمين فقد دفعني المنهج العلمي الموضوعي النزيه لتبني رؤية شمولية لتناول هذه الشخصية وإعادة النظر فيها في إطار التفاعل الحضاري بين الحضارات؛ والذي تبناه الإسلام قبل أي عقيدة أخرى، ولهذا تبنيت المنهج التكاملي المستند إلى التحليل الهادئ لكل قضية تمثل بين يدينا؛ فكان المنهج التاريخي يتقدم على غيره حينما يكون له المقام؛ ويتراجع أمام المنهج الفلسفي الفكري المنطقي حينما يتطلبه موضوع ما، وكلاهما يتراجعان أمام المنهج اللغوي التحليلي عندما يمثل الأدب شامخاً لبيان خصائصه، وكذلك المنهج النفسي والاجتماعي، وعلى الرغم من تغليب منهج على آخر فإن المناهج تتكامل فيما بينها للوصول إلى الحقيقة؛ ولا شيء غيرها. وبناء على هذا المنهج توزعت الدراسة على مدخل قصير وفصول أربعة كان الفصل الربع أكبرها وأشملها.

obeikandi.com

وتناول المدخل حالة الأمة الإسلامية في إطار امتزاج أبنائها الثقافي الحضاري الذي لا يعترف بعصبية لعرق أو جنس أو لون، وبين ريادة أبناء العرب وفارس لهذه الحالة الحيوية المتقدمة في التفاعل على صعد شتى في الفقه والحديث، والفلسفة والدين، واللغة والأدب وفق مفهوم العدل والمساواة الدينية؛ لأن الدين الإسلامي يحصن جميع أبناء الأمة ويرعاهم بمبادئه السامية، لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى.

ثم تعلق الفصل الأول (حياته وصفاته) بكل ما يعرفنا بهذه الشخصية المتميزة اسماً ونسباً وولادة ونشأة، وصفات ورثها واكتسبها؛ فكان المثال الأرحب للشاب العاقل الصادق الطامح إلى بناء الأمة بناء سليماً، منطلقاً فيه من تصحيح سلوك الفرد أياً كانت منزلته. يدعوه أبداً إلى الفضائل الكبرى والتمسك بالخلق الكريم؛ وهو الخلق الذي دفعه - مع عقله الحصيف – إلى الإسلام فحسن إسلامه؛ وأتقن عمله في صناعة الكتابة؛ وأخلص إخلاصاً لا نظير له في مهنة التأديب؛ وصدق عهده وثبت عليه مع أولياء نعمته من آل علي بن العباس أعمام الخليفة أبي جعفر المنصور فدفع رأسه ثمناً لذلك كله، حين تحول به الحال السياسي ووضعه في خندقهم المقابل لخندق الخليفة، فتخلص منهم ومنه.

ثم جاء الفصل الثاني (آثاره وأبعادها الفكرية) الذي بدأ بتمهيد أبرز تأثر الأديب اللاحق، ومن ثم كشف عن تعاظم مهمة الكاتب في بداية العصر العباسي وأثره في الحياة الخاصة والعامة. ومن بعد: عالج الفصل الآثار المنسوبة إليه والمفقودة مثل (البنكش والسكيكن؛ وأنا لوطيقا وإيسا غوجي) ثم آثاره

المفقودة وهي له مثل (خداي نامه، والآيين؛ والتاج ومزدك، ورسالة تنسر، والدرة اليتيمة...) ثم آثاره الموجودة مثل (كليلة ودمنة، والأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة...) وحلل كل آثر على حدة من جهات عدة في قراءة فكرية سياسية واجتماعية وأدبية؛ ونفسية؛ تعتمد العقل والنقل.

أما الفصل الثالث فعنوانه (براءته من الزندقة) وكشف المدخل فيه عن الحرية الواعية للعاقل الذي يفتح نوافذه على القديم دون أن يبقى عنده، بمثل ما يفتحها على الجديد دون أن يغدو أسيراً له، وقد صان الإسلام حرية الاعتقاد واحترمه، ثم ألتزم الحلفاء بمبدأ الدين الحنيف فأطلقوا للناس حريتهم الفكرية والاجتماعية والدينية، مما أدى إلى اختلاط الثقافات التي انتهت إلى اختلاف المفاهيم، وهذا فرض علينا التوقف عند مفهوم الزندقة التي اتجهت إلى أربعة مفاهيم؛ باعتبار أن اللفظ والدلالة ليس مما في العربية أصلاً. فالتابع لكتاب (الزند) زنديق؛ وكذا مما يتبع ديناً بعينه، كالمانوية؛ وربما أطلق حتى شاع على كل من يتبع ديناً مجوسياً، ثم توسع المفهوم لينعت كل ماجن متظرف بالزندقة، سواء كان مجونه إلحاداً وشكاً أم كان تلميحاً واستهتاراً وإقبالاً على متع الدنيا. ثم عولجت الأسباب التي دعت الناس والباحثين إلى اتهامه بالزندقة ومناقشتها سبباً سبباً، كاتهامه بالحنين إلى المانوية على إسلامه، واتهام معاصريه له بها، واتهام المهدي لآثاره بأنها الأصل فيها؛ فضلاً عن آثاره التي فسرت على أنها دعوة للمانوية والعصبية الفارسية، واجتماعه بالمجان والزنادقة الذي جعل الناس يصدقون التهمة عليه، وصدق فيه القول: من حام حوله الحمى وقع فيه.

obeikandi.com

أخيراً تقدم الفصل الرابع (ابن المقفع أدبياً) وعرض مدخله للأسباب التي جعلته يحظى باحترام أعدائه ومناصريه في نثره؛ ثم بين مكانته لدى القدماء والمحدثين وأثر كتبه فيهم؛ وكيف غدت مكانته عالمية، وناقش مطولاً فنونه وموضوعاته، ما جدد فيها وما طوره، وقسمت الموضوعات الدينية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية والعلمية والسياسية؛ بما فيها الدعوة إلى الاستشارة، ومن الخاصة موضوع المرأة والحرص على الإخوان (الصداقة) والانتفاع بحسن الاستماع والحفظ؛ ومفهوم العمل المنظم. ثم بحث الخصائص الشكلية لنثره بدءاً من البناء المعماري للنص ومروراً بالوضوح والسهولة والدقة والتلاؤم، والتوازن والتراسل؛ والتحميد و الإرداف؛ والقص والترميز؛ وانتهاء بالتضمين، ليختم هذا الفصل بشاعريته : ما أودعه من الأشعار في أدبه، وما قاله من شعر، وعرضنا لسبب قلة شعره، علماً أنه لم تكن غايتنا الإحاطة به وتعقبه. وكنا نثبت عدد من الأسباب البلاغية في صميم أسلوب التكثيف، فبلاغة ابن المقفع ظهرت في حذقه لأساليب العربية حتى استحق عن جدارة صدارة البلغاء العشرة في زمانه، ومن صارت بلاغته مضرب المثل في استلهام ما قاله فيها من آراء، وما اتبعه من أساليب وفي طليعتها أسلوب الإيجاز والإطناب.

ولم يستحق فقط – مرتبة الرئاسة في البلاغة؛ بل صار حكيماً من طراز رفيع مثلما كان مصلحاً اجتماعياً من نمط فريد، حمل على عاتقه هموم مجتمعه، وثقافته، وجعل قلمه كمبضع الجراح يستأصل كل فساد أينما رآه، وغدا للكلمة قيمتها وسلطانها؛ لأنها كلمة الله في أرضه؛ ممثلة بالإنسان الحر الشريف القوي بعقله وقيمه وإنسانيته؛ ما دام يملك الإرادة والطموح الخلاق.

هكذا فرض علينا المنهج العلمي أن نبدأ دائماً بمدخل يحمل الرؤية العامة؛ ثم يمضي إلى الفصل الذي يحمل الرؤية الخاصة القائمة على التحليل والاتساع في مناقشة كل قضية بالحجة والبرهان؛ سواء كانت الأدلة نقلية من آراء الباحثين؛ ومن نصوصه التي خلفها لنا آراء وأدباً، أم كانت أدلة عقلية مستقاة من نصوصه ذاتها.

ثم إننا ذيلنا كل فصل بحواشيه الخاصة به؛ لتستقر الدراسة عند أهم نتائج الدراسة فالمصادر والمراجع، وفهرس المحتوى. ولعل القارئ الكريم يلحظ شيئاً من التكرار في بعض الفصول؛ فيعيبه علينا؛ وتأخذه الغيرة على المنهج العلمي الدقيق..ولكنني أستميحه العذر في هذا التكرار لأنه كان موظفاً في كل مرة للقضية التي يناقشها؛ مما استدعاه في النصوص أو في الآراء.. لهذا كان التكرار مقصوداً لذاته فيما ينبغي له من المناقشة والبرهان.

ويظل أي عمل غير مكتمل إلا بتعاون العقول الحرة للوصول إلى أفضل سبيل في الحوار والمناقشة والانفتاح على الآخر، لأن هذه العقول تنشد دائماً صفة الكمال؛ والكمال لله وحده؛ بديع السماوات والأرض؛ والعقل البشري مركب على النقص بطبعه، مادامت الكلمة تتجدد، والثقافة تنمو وترتقي، وليس لنا إلا أن نقول:﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ ولعلنا نكون قد وفقنا في عملنا ﴿وليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى﴾؛ والله ولي التوفيق.

د. حسين جمعة

ope-lang.com